

(١)

حياة القديس لويس

تأليف

جين جوانفيل

توطئة

بسم الله الرحمن الرحيم

تعد الحملة الصليبية السابعة من أهم الحملات، لا لأنها كانت الأخيرة، بين الحملات الكبرى، بل لما رافقها من أحداث، فهي أرادت احتلال مصر، وقد اعتمدت على العناصر الفرنسية مثل الحملة الأولى، وأخفقت هذه الحملة، وجاء إخفاقها وترافق مع انتهاء الحكم الأيوبي في مصر، ومع التمهيد لقيام حكم المماليك، كما أن هذا كله ترافق مع ظهور المغول على ساحة الأحداث، فعندما كان لويس التاسع في قبرص راسل المغول، وبعد خلاصه من الأسر ببعض الوقت تلقى الجواب من الخان المغولي، والعلاقات المغولية الأوربية هامة جداً أفردت لها دراسة خاصة، كما أنني جمعت أهم ما كتب من مصادر عن المغول، سأفرد لها عدة مجلدات في نهاية الموسوعة، وذلك بعد الفراغ من الموضوع الصليبي الأساسي.

وكان الملك لويس التاسع هو الذي قاد الحملة الصليبية السابعة، وقد أخفقت هذه الحملة، ووقع الملك لويس بالأسر، وأفضل من أرخ لهذه الحملة ولوقائعها بتفصيل موثق هو جين صاحب جوانفيل، وكان سليل أسرة إقطاعية فرنسية عريقة، هذا وخير مصدر يتحدث عن حياة جوانفيل هو كتابه الذي أرخ به لحياة الملك لويس، وكان هذا الكتاب قد نقل إلى العربية من قبل الدكتور حسن حبشي، ونشر في القاهرة عام ١٩٦٨، ولدى تفحصي الدقيق لهذه الترجمة، وجدتها تفتقر إلى الدقة، تعرض النص فيها أحياناً إلى الاختزال وأحياناً إلى البتر، وتكون لدي انطباع أن الدكتور حبشي لم يقوم شخصياً بالترجمة، بل عهد بذلك إلى

عدد من تلاميذه، ولهذا ساد التفاوت أجزاء الكتاب، وظلت بعض آثار عمل الطلاب واضحة، ويكفي أن أسوق هنا مثل صارخ ورد في صفحة ٢٦٨ تحت عنوان «جنوح باخرة الملك» بدلاً من القول: «جنوح سفينة الملك»، ذلك أن اعتماد البخار في دفع السفن وتسييرها حديث جداً.

وعاصر جوانفيل في منطقة كليكية، في شمالي بلاد الشام، أمير أرمني اسمه سمباط، ويرجح أنه كان أخاً للملك هيتوم الأول، وقائداً من قادة جيوشه، وقد خدم تحت لواء الملك ليون الثاني، بعد وفاة والده هيتوم الأول، ومن المعتقد أنه اعتمد في تأريخه على متى الرهاوي وعلى غريغوري الراهب، وعلى وثائق أنطاكية وسجلاتها، وذلك بالإضافة إلى مذكراته الشخصية، وقد توقف في تأريخه عند سنة ١٢٧٤ م.

ويبدو أن سمباط كان بالإضافة إلى كونه قائداً عسكرياً، كان سفيراً ورجل سياسة، سفر إلى المغول الأيلخانيين في إيران، ومن المرجح أنه مات سنة ١٢٧٦ م.

وتأريخه وإن مثل وجهة النظر الرسمية لدولة أرمينيا الصغرى في كليكية تقوم أهميته على المادة الإخبارية التي تعلقت بهذه الدولة، وعلى ما عاصره سمباط من أحداث، لاسيما بعد اجتياح هولاكو لبغداد، ثم هزيمة جيوشه في عين جالوت.

وكان سمباط واسع الثقافة، ومن المعتقد أن الكتاب الذي وصلنا قد حوى مواد الإخبارية، لكن صياغتها قد جرت من قبل إنسان آخر، وهذا لا يقلل كثيراً من قيمة الكتاب، وسيظل هو المعتمد حتى تسعفنا الأيام، باكتشاف كتاب سمباط الأصيل نفسه.

وكتاب سمباط هذا هو واحد من كتابين أرمينيين، أرخ ثانيهما لأمة الرماة، أي المغول، وسأشره — إن شاء الله — مع النصوص المتعلقة

بالمغول.

وهذا وألحقت بمجلدنا هذا رسالتين، لهما ارتباط بادوارد الأول، ملك انكلترا، الذي قاد واحدة من الحملات الصليبية، كانت أشبه بموجة شاردة، وأشار سمباط إلى هذا الملك الانكليزي، وإلى تعرضه لمحاولة اغتيال في عكا.

وعلى هذا أكملت نصوص هذا المجلد بعضها بعضاً، ونظراً لاحتمال أن يكون هذا المجلد، هو الأخير الحاوي لأخبار عسكرية وسياسية حول الحروب الصليبية، مما كُتِبَ بغير العربية، فقد ألحقت به بعض النصوص التي كتبها رجل الدين الانكليزي وولتر ماب، وكان من معاصري هنري الثاني وابنه رتشارد قلب الأسد، وكنت قد حصلت على مصورة لكتاب ماب الذي نشر سنة ١٩٢٤ منذ أمد وجيز، هذا وأسلوب ماب غريب، وتذكرنا لغته وأسلوبه بالعماد الأصفهاني.

وأملّي كبير بأن يمدني الله جل وعلا بالعون لمتابعة العمل بهذه الموسوعة وتحقيق مشروعها كاملاً.

والحمد لله على نعمائه، وصلى على النبي العربي وعلى آله وصحبه وسلم

دمشق ٢٢ محرم ١٤٢٠ ٧ أيار ١٩٩٩

سهيل زكار

تكريس

إلى مولاه الطيب لويس، ملك فرنسا، وبنعمة الرب ملك نافار، وكونت بالاتين Palatine في شامبين، وبري، يبعث جين صاحب جوانفيل، وتابعه المخلص ونائبه في شامبين، بتحياته المخلصة والمحبة.

مولاي العزيز: أغتنم الفرصة لأخبركم بأن سيدتنا، الملكة أمكم — منحها الرب النعمة — رجتني بإخلاص عظيم، أن أكتب كتاباً لها، يحتوي على الأقوال التقوية والأفاعيل الجيدة للمليكنة القديس لويس، وقد وعدتها بالقيام بذلك، وقد أكملت الكتاب الآن، الذي قسمته إلى قسمين: يتحدث القسم الأول حول كيف تحكم الملك لويس في جميع الحالات بحياته وفقاً لإرادة الرب، ولشرائع الكنيسة المقدسة، ويتحدث القسم الثاني عن شجاعته المشهودة وعن براعته العظيمة في استخدام السلاح.

مولاي: بما أنه قد كتب «افعل أولاً الأشياء المتعلقة بخدمة الرب، وهو سوف يقودك في جميع الأشياء الأخرى»، لقد كرست القسم الأول من كتابي للأشياء الثلاثة التي ذكرتها أعلاه، أي الأشياء المتعلقة بصلاح النفس، وصحة الجسد، والحكم الصالح للناس.

وقمت، فضلاً عن هذا، بمعالجة هذه الأمور بطريقة تهدف إلى تقديم التشریف اللائق بهذا القديس الحقيقي، لأنني بهذه الطريقة سوف أمكن الناس من إدراك أن ما من إنسان علماني في أيامنا قد عاش بمثل حالة الطهارة التي عاشها طوال حياته، منذ بداية حكمه وامتداداً حتى وقت وفاته، ولم يحدث أنني كنت موجوداً شخصياً عندما مات، لكن ابنه بيير دي ألسون — الذي أحبني تماماً — كان هناك، وأخبرني حول النهاية الطيبة التي صنعها والده، حسبما ستجد ذلك موصوفاً في نهاية

هذا الكتاب.

ويبدو لي في هذا المقام، أن الذين أهملوا وضع الملك لويس بين الشهداء، لم يقدموا له ما يكفي من التشريف، آخذين بالتقدير الآلام العظيمة التي تحملها في الأعوام الستة التي كنت فيها معه في الحملة الصليبية، وبشكل خاص لأنه حذا حذو مولانا في حمله الصليب، فإذا كان المسيح قد مات على الصليب، كذلك فعل هو، لأنه توفي في تونس وهو صليبي يرتدي تلك الشارة المقدسة.

ولسوف يتحدث القسم الثاني من كتابي عن أعماله العظيمة في ميدان الفروسية، وأفعاله الشجاعة الرائعة، وانضح هذا في أربع مناسبات — سوف أتحدث لكم عنها فيما بعد بشكل كامل — حيث عرض حياته عن طواعية للخطر، حتى يحول بين شعبه وبين التعرض للأذى.

وكانت المرة الأولى التي عرض فيها حياته للخطر عندما وصل إلى أمام دمياط، فقد نصحه جميع مستشاروه — حسبما أخبرت — بالبقاء على ظهر سفينته، حتى يرى فرسانه — الذين كانوا على وشك النزول إلى اليابسة — كيف سيتصرفون، وكان السبب في إسداء هذه النصيحة له، أنه إذا ما نزل إلى اليابسة مع فرسانه وقتل هو وهم، فإن معنى ذلك سيكون إخفاق المشروع كله، لكنه، من جهة أخرى، إذا ما بقي في سفينته، سوف يبقى ليقود حملة جديدة للإستيلاء على مصر، غير أنه — على كل حال — لم يصغ لأحد، بل قفز إلى البحر، وهو شاكي السلاح، ومعه ترسه معلق في رقبته، ورمحه في يده، وكان بين الأوائل في الوصول إلى الشاطيء.

وكانت المناسبة الثانية، عندما كان الملك على نية مغادرة المنصورة والذهاب إلى دمياط، نصحه مستشاروه — حسبما علمت — بالسفر إلى هناك في غليون، وقدمت هذه النصيحة له — كما أخبرت — بسبب أنه

إذا ما حدث لرجاله أية مأساة، سوف يكون في وضع أفضل لإنقاذهم من الأسر، وقدمت هذه النصيحة له بشكل خاص بسبب وضعه الصحي، فقد كانت عدة أمراض قد نخرت جسمه، من ذلك حمى ثلاثية مزدوجة، وإسهال حاد، كما أصابه المرض الذي تفشى في الجيش، وأثر على فمه وعلى رجله، ومرة ثانية ما كان ليصغي إلى أحد وقال بأنه لن يهجر رجاله مطلقاً، وسيقابل المصير نفسه كما فعلوا، وهكذا قام بسبب الهجمات الطويلة للإسهال بقطع الجزء الأسفل من سراويله، وكان في الوقت نفسه الألم الذي عانى منه من حمى الجيش هائلاً، حتى أنه أغمي عليه عدة مرات خلال المساء.

وكانت المرة الثالثة خلال الأعوام الأربعة التي أمضاها في الأرض المقدسة بعد عودة أخيه إلى فرنسا، وكانت حيواننا وقتذاك في مخاطر عظيمة، لأنه خلال الحقبة كلها التي أمضاها الملك في عكا لم يكن لديه في جيشه سوى رجل واحد مقابل ثلاثين رجلاً في تلك المدينة، وذلك في تاريخ متأخر عندما جرى الاستيلاء عليها من قبل المسلمين، وأنا شخصياً لا أعرف أي سبب، لماذا لم يأت المسلمون في ذلك الوقت لأسرنا في عكا، ما لم يكن هو حب الرب لملكنا حيث وضع خوفاً عظيماً في قلوب أعدائنا، لذلك لم يتجرأوا على الهجوم علينا، لأنه أولم يكتب: «اخش الرب وسيخشاك جميع الناس»؟ وهكذا بقي الملك في الأرض المقدسة مراغمة لنصيحة مستشاريه، واضعاً حياته في خطر، من أجل حماية شعبه في تلك الأرض، فقد كان هذا الشعب عرضة للخسارة لولا أنه أقام لمساعدته.

وكانت المرة الرابعة التي تقبل فيها الملك مخاطرة مماثلة عندما سرنا على محاذة قبرص في أثناء عودتنا من (بلاد) ما وراء البحر، فقد دفعت سفيتتنا بشكل خطير جداً ضد الصخور، حتى أن ثلاثة ياردات من القاعدة التي بنيت عليها قد انفصمت، وبعث الملك خلف أربعة عشر

من معلمي الملاحة، وذلك من سفينته ومن السفن الأخرى التي كانت برفقتها، واستوضح منهم ما الذي ينبغي عليه القيام به، وقد نصحوه بالصعود إلى ظهر سفينة أخرى، لأنهم لم يكونوا يدرون كيف يمكن للسفينة التي هو عليها الصمود في وجه ضربات الأمواج، لأن جميع المسامير التي توجب عليها إمساك قطع الخشب مع بعضها قد تفككت، وضربوا له مثلاً على المخاطر التي كانت السفينة عرضة لها، بإخباره كيف أنهم وهم مبحرون إلى بلاد ما وراء البحر، قد خسروا إحدى سفننا بالطريقة نفسها .

(أنا شخصياً قابلت لدى كونت دي جويني joiny امرأة وطفلاً كانا وحدهما الناجين من هذه السفينة).

ورد الملك على هذا قائلاً: «أيها السادة الجيدين، إنني أعلم أنني إذا ما تركت هذه السفينة ستعد مهجورة، والذي أعرفه أن على ظهرها ثمانمائة روح أو أكثر، وبما أن كل إنسان يثمن حياته كما أفعل، فإذا ما غادرت السفينة ما من واحد سوف يتجرأ على البقاء، بل سيبقى الجميع في قبرص، ولهذا السبب — إذا قدر الرب — لن أدع مثل هذا العدد من شعبي كما هم الآن عرضة لمخاطر الموت، بل سوف أبقى حيث أنا لإنقاذهم، وهكذا بقي الملك على ظهر سفينته، وحفظنا الرب — الذي وثق به — جميعاً من مخاطر البحر، حتى وصلنا سالمين بعد لأي إلى مرسى.

ويمكن أن أضيف أن واحداً اسمه أوليفر دي تيرم Termes ، الذي تصرف بشكل جيد، وقدم برهاناً على شجاعته عندما كنا فيما وراء البحر، قد تخلى بالحقيقة عن الملك، وتخلف في قبرص، ولم نره مرة ثانية لحوالي سنة ونصف السنة، ومهما يكن من أمر، لقد أنقذ الملك، ببقائه في سفينته، جميع الثمانمائة من شعبه الذين كانوا على ظهرها، وجنبهم التعرض لأي أذى.

ولسوف أحدثكم في القسم الثاني من هذا الكتاب عن وفاة الملك لويس، وعن طريق القداسة التي توفي فيها.

والآن كما أخبرتكم يا مولاي ملك نافار، لقد وعدت سيدتي الملكة، أمك — أراها الرب الرحمة — بأنني سوف أصنف هذا الكتاب، والآن، حتى أفي بوعدتي، لقد توليت كتابته، زيادة على هذا، بما أنني لا أرى أحداً له الحق به مثلك، لأنك وريثها، إنني مرسله إليكم، لكي تقوموا أنتم وإخوانكم — وكل واحد آخر سيسمعه يتلى — بإتخاذ بعض الأمثال منه قدوة، وتقوموا بممارسة ذلك، وبذلك سوف تريحون لأنفسكم الفضل بنظر الرب.